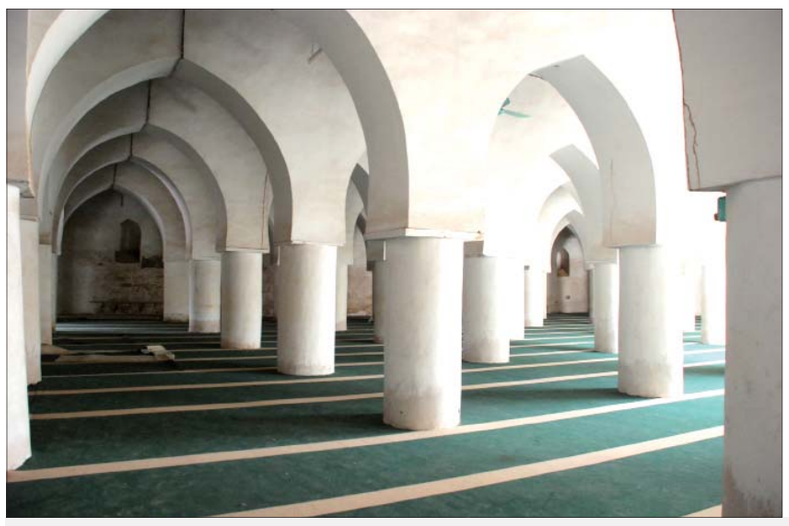

مدينة زبيد التاريخية:

ارتباط وثيق بالحضارة الإنسانية والعلم والأدب

■ معالم أثرية هامة تبرز أهمية ومكانة المدينة على مستوى العالم

■ وادي زبيد ووادي رمع شرايين المدينة التي تمدها بالمياه العذبة .. وتزيدها خصوبة

..تعتبر مدينة زبيد إحدى أهم المدن الساحلية الغربية ذات الأهمية التاريخية والأثرية في اليمن ، وإحدى أقدم وأعرق مدينة إسلامية على مستوى العالم العربي والعالم الإسلامي ، وتضم العديد من المعالم الأثرية الهامة إلى جانب المكانة العلمية التي كانت تتمتع بها في الفترة الإسلامية والتاريخية التي مرت بها منذ تأسيسها في بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) عام ٢٠٤هجرية.

إعداد/حافظ حفظ الله

– تقع مدينة زبيد على خط طول ٤٣ درجة شرقاً وخط العرض ٢٥ درجة شمالاً، وفي موقع متوسط من سهل تهامة الذي يحتل القسم الغربي من اليمن، ويمتد من عدن جنوباً حتى حدود المملكة العربية السعودية الشقيقة شمالاً، وتبعد عن العاصمة صنعاء بحوالي «٢٣٣ كم» باتجاه الجنوب الغربي، كما تبعد عن مدينة تعز بحوالي «١٦١ كم» باتجاه الشمال الغربي، وعن مدينة الحديدة «٩٥ كم» باتجاه الجنوب الشرقي، كما أن مدينة زبيد التاريخية تحتل موقعاً متوسطاً بين البحر الأحمر الواقع غرب المدينة، وسلسلة الجبال الواقعة إلى الشرق منها، حيث تبعد عن كل منهما مسافة «٢٥ كم»، ولذلك يصفها ابن بطوطة بأنها مدينة برية لا شطية، ويذكرها أبو الفداء بأنها «في مستوى من الأرض عن البحر أقل من يوم»، أي أنها «ترتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي «١٠٠م» كما تقع بين واديين زراعيين مهمين هما: وادي زبيد جنوب المدينة، ووادي رماع شمالها وتبعد ٩٠كم جنوب مدينة الحديدة ومناخها شديد الحرارة والرطوبة صيفا يميل إلى الاعتدال شتاء، وتقع ضمن حزام الرطوبة العالية والسطوع الشمسي المرتفع، وتبلغ معدل درجة الحرارة فيها ٣٢– ٣٥ ومعدل الرطوبة العظمى ٨٥,٢٪ والصغرى ٤١,١٪ والأمطار قليلة ومتقطعة ويبلغ معدل سقوطها ١٣,١٢مم.

وتبلغ مساحة مدينة زبيد في حدود ٢٤٥ هكتاراً منها ٩٢ هكتاراً مساحة المدينة التاريخية والمحددة داخل السور وبذلك فإن الكثافة السكانية الإجمالية في المدينة في حدود ٧٠ شخص/ هكتار، وهي نسبة تتصف بها جميع المدن الصغيرة في تهامة، كما أن مساحة المدينة ترتبط عادة بعدد السكان وبالوظيفة الأساسية التي تتميز بها المدينة (صناعية، خدمية، سياحية، إدارية... الخ) وكان موقع زبيد قبل إنشائها أرضاً زراعية كثيرة الأشجار تابعة لوادي زبيد ووادي رمع، يرعى فيها الرعاة مواشيهم ويسقون دوابهم من بئر قديمة، وحول هذه الأرض قرى صغيرة متناثرة من أهمها قرية الحصيب والمنامة والنقير وجيبجر وواسط، وساكنوها ينتمون إلى قبيلة الأشاعر قوم الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلن إسلامه، ثم خرج إلى قومه في تهامة في السنة العاشرة من الهجرة، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبنى لهم جامع الأشاعر – نسبة إلى القبيلة – فكان أول مسجد يبني في تهامة، وثالث مسجد يبني في اليمن بعد جامعي صنعاء والجند.

وسميت مدينة زبيد باسم الوادي، وتقع في منتصف الوادي وتبعد عن البحر ب(٢٥كم)، وعن الجبال ب(٢٥كم) ، وترتفع عن سطح البحر ب(١٠٠م) بشبه مدرجات ويرتفع الوادي عن المدينة ب(١٥٠م) وتقع بين واديين وادي زبيد ووادي رمع للأشعريين.. وقد حظي الواديان بدعوة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: بارك الله في زبيد ثلاثا ورمع في الثالثة.

تهامة في التاريخ

وتسمى زبيد: الحصيب بالتصغير.. نسبة إلى الحصيب بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن يقطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن سبأ.

وأورد الأستاذ المرحوم «الحضرمي» في كتابه المخطوط« تهامة في التاريخ« تقرير البعثة الأثرية الكندية – التي عملت في مدينة زبيد والمنطقة المحيطة بها برئاسة الدكتور « أدوارد كيل « خلال الفترة (٨٢ – ١٩٨٤ ميلادية) – وقد عثرت البعثة على وجود أدلة تؤيد ما ذهب إليه المؤرخون مثل « ابن الديبع « عن مدينة زبيد بأنها كانت في الأصل عبارة عن عدد من القرى السكنية لقبيلة الأشاعرة، وقد ساعد وجود الوادي زبيد على وفرة المياه التي تعتبر من العوامل اللازمة لأي مجتمع سكاني قبل أن يقوم « ابن زياد « بتخطيط المدينة ذاتها بالقرب من جامع الأشاعرة في عام (٢٠٤ هجرية) – (٨١٩ ميلادية)، كما أن البعثة الكندية عثرت على مواقع أثرية متناثرة في أرجاء المدينة أهمها الموقع الأثري في الجهة الشمالية للمدينة يعرف بمنطقة القصر فيه بعض القطع الفخارية السوداء يعود تاريخها إلى ما قبل (القرن الثالث الهجري) أي قبل وصول « ابن زياد « وبعضها إلى العصر الحميري والبعض الآخر إلى العصر الحجري.

وكانت عبارة عن قرى متفرقة منها المنامة والنقير ، وتقعان غربي المدينة وكانتا مدينتين عظيمتين وجيجر شرق المدينة وقيانوس وواسط بين الغرب والجنوب والقرتب بالجنوب الشرقي وجبل قونس بالشمال الشرقي، وكانت زبيد غيظة أي هيجة كثيرة الأشجار يرعون بها الرعاة مواشيهم ويسقون دوابهم من بئر قديم عمر بجواره مسجد مرصوف بالحجارة سمى بالأشاعرة ولا تزال البئر موجودة إلى الآن وكان ينزح منها الأشعريون.

زبيد بعد الإسلام

– عندما سمع اليمنيون بالبعثة النبوية كان على رأس ملبي الدعوة قبيلة الأشاعرة في العام الثامن للهجرة برئاسة أبي موسى الأشعري وأخويه أبو بردة وأبو رهم وجماعة من القبيلة ، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أهل اليمن: «جاءكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً.. الإيمان يمان والحكمة يمانية»، ثم بعث الرسول أبي موسى الأشعري مع معاذ بن جبل لنشر الإسلام في اليمن ، فقدم أبو موسى الأشعري زبيد ورفيقه عن طريق البحر فنزلا ميناء البقعة المسماة حالياً بالغازة، فاستقر أبو موسى الأشعري بزبيد، واتجه معاذ بن جبل إلى الجند فنشر الدعوة بزبيد وبنى مسجد الأشاعر ومسجده المشهور باسمه بالحمى على بعد أربعة كيلومترات شرقي المدينة ثم عاد إلى المدينة المنورة حيث بعثه الرسول إلى مارب وظل فقهاء القبيلة ينشرون تعاليم الإسلام بزبيد وما إليها إلى عام ٢٠٣ هـ..

أربعة أرباع

– الرُبْع الأعلى: يحتل الجزء الشمالي الشرقي من المدينة، ويحده شرقاً قرية محوى قبس، وشمالاً سائلة مقبرة العرق، وغرباً شارع باب سهام، وجنوباً شارع باب الشبارق.

رَبْع الجامع: نسبة إلى الجامع الكبير، ويحتل الجزء الشمالي الغربي من المدينة، مقابل الربع الأعلى حيث يشكلان معاً النصف الشمالي من المدينة، يحده شرقاً شارع باب سهام وبيوت بني الأنباري، وشمالاً السور الشمالي للمدينة والمدرسة الفاتنية، وغرباً باب النخل والسور الشمالي الغربي، وجنوباً شارع باب النخل.

– رَبْع المجنبذ: يحتل الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة، يحده شرقاً القلعة وميدانها والمدرسة الكمالية، وشمالاً شارع باب الشبارق، وغرباً شارع باب القرتب المعروف حالياً باسم شارع المدرسة الدعاسية والذي يتصل مع شارع باب سهام، وجنوباً جزء من سور المدينة وبيوت بني السُحَاري.

– رَبْع الجزء: يحتل الجزء الجنوبي الغربي من المدينة يحده شرقاً شارع المدرسة الدعاسية، وشمالاً شارع الحديقة، وغرباً قرية السطور والتجمعات السكانية الحديثة، وجنوباً باب القرتب وبعض بيوت بني السحاري.

مظاهر الحضارة في زبيد

– امتازت زبيد العصر الإسلامي بالطابع الحضاري الإسلامي في شتى عصورها بالعلم ابتدأ بابي موسى الاشعري إلى عام ٢٠٤هـ بدأت في النمو عندما قام محمد بن زياد وبرفقته محمد بن هارون التغلبي الذي تولى القضاء والإفتاء فأنجب ذرية حذو حذوه في بناء الفكر الإسلامي، عرفوا لقباً ببني عقامة منهم العلامة الحسن بن محمد عقامة وأبو الفتوح علي بن محمد بن علي بن أبى عقامة التغلبي.

وتعتبر المدرسة العاصمية في العهد النجاحي إحدى مدارس جامعة الأشاعر كان من مدرسيها محمد بن عبدالله بن أبي عقامة الحفائلي ومحمد عبدالله الابار ونصر الله الحضرمي ومن خريجيها عمارا بن زهيدان الحكمي اليمني، ومن ثم ازدهر الفكر الإسلامي في المذاهب الأربعة ومن أشهر العلماء منهم عمر بن عاصم ومحمد بن دحمان الذين اشتهرت بهم المدرسة الدحمانية والعاصمية في العهد الأيوبي والعلامة ابن حنكاش في المدرسة المنصورية والعلامة أبو الحسن بن عبدالله بن مبارك الزبيدي مؤلف تجريد صحيح البخاري الذي قال فيه العلامة المصري محمد بن محمد الجزري حين وصل زبيد سنة ٧٢٨هـ.

الزراعة

– اشتهرت زبيد بواديها الخصيب بالزراعة ، وقد أهتم الفلاح الزبيدي بالزراعة بخبرته وتجاربه في الزراعة في مختلف مواسمها ، حيث يزرع الذرة البيضاء والحمراء والدخن والسمسم والحور والرومي المسمى الهند والقطن والفاكهة كالموز والعنب والعمبا والرمان والليمون والتين.. والخضر كالباميا والطماط والحبحب (المسمى دبا) والزهور كالورد والياسمين والفل والكادي والنرجس والاهتمام بالنخيل وموسمه المسمى (سبوت النخيل)، حين ثمره تصل إليه الوفود الشعبية والرسمية للاصطياف والتجارة في مناطق النخيل وشجعته الدولة الرسولية.. ومصيف آخر في الوادي يسمى مصيف العصيد بالوادي بالشتاء بزراعة الذرة البيضاء (القيرع).

الموانئ

– كما شهدت زبيد حركة تجارية إذ كان لها ميناءان طبيعيان كانا مصدراً كبيراً للتطور التجاري الأول: ميناء غليفقة، والثاني: ميناء الفازة إلى جانب ميناء المخا والخوخة .. غير أن ميناء الفازة أهتمت به الدولة الرسولية وخاصة الملك الناصر أحمد الرسولي الذي استقبل الخبراء الصينين سنة ٨٣٣هـ في الفازة لتحسينه وظل مصدراً لمنتجات زبيد المصدرة البضائع المستوردة إلى عهد قريب. ويعتبر ميناء الفازة طبيعياً وجميلاً صالحاً للاصطياف حيث كان ينزل فيه ملوك الدولة الرسولية للاستجمام فيه، وبجواره عين ماء حلو يغتسل فيه، المستحم بعد أن يستحم في البحر لكي يزيل عنه ملوحة البحر.. ويمتاز بالتربة الصالحة للزراعة.. وساحله المضيف.

رابعا: التراث العمراني

– (أ) المدارس الإسلامية: يوجد في مدينة زبيد حوالي (٨٥ مدرسة) علمية إسلامية كانت تضم كافة المدارس الفكرية والدينية التي تمثل المذاهب الإسلامية المختلفة وتعتبر مدينة زبيد من أشهر المراكز الفكرية العالمية ليس في اليمن فحسب بل على مستوى العالم الإسلامي ولا تزال بعض تلك المدارس موجودة بمسمياتها الحقيقية، ولا تزال المكتبات الخاصة بزبيد تضم دوراً من المخطوطات النادرة وأمهات الكتب في مختلف العلوم، وعبر تاريخها الطويل أبرزت فطاحل العلماء أمثال شيخ الإسلام « إسماعيل بن أبي بكر المقري « الذي كان مفخرة عصره بعلمه وحجم مؤلفاته الشهيرة واهتمامات الجامعات الأوروبية بمؤلفات علماء زبيد في الطب والزراعة والرياضة والتي تنتسب كلمة جبر المعروفة إلى عالم من زبيد، فارتبطت زبيد بالمدارس الدينية والفكرية والعلمية وبرزت مجموعة من مشاهير علماء الدين والتفسير والحديث واللغة وأصبح لها قيمتها التاريخية كمزارات لهولاء الأئمة الأوائل ومن مزاراتها قبر الزبيدي أحد رواة الحديث المشهورين والفيروزبادي صاحب المحيط وأحد فقهاء اللغة العربية وآخرين غيرهم كثيرين ومن هنا اكتسبت أهميتها.

ومن الأربطة التي ما زالت موجودة في المدينة – الرباط: يطلق على الأبنية التي يسكن فيها الطلاب وترتبط بالمساجد التي يتلقون فيها الدروس عن العلماء –، رباط يحيى بن عمر الأهدل، ورباط الجامع الكبير، ورباط الأشاعرة، ورباط البطاح، ورباط علي يوسف، ورباط المهادلة، ورباط الفرحانية، ورباط الخوازم، ورباط الدارة، ورباط الغصينية، ورباط ومسجد الوهابية، وهذه الأربطة وأمثالها من المقاصير التابعة بالمساجد كانت مشاعل للفكر الإسلامي، وهناك حقيقة تاريخية عن المدارس في زبيد فقد بلغت في عهد الملك الأشرف الثاني الرسولي سنة ٧٩١هـ مائتين وستة وثلاثين مدرسة ومسجداً.

وأهم المساجد : جامع الأشاعر أسسه أبو موسى الأشعري والجامع الكبير.

(ب) السور والأبواب:

– أول من سور مدينة زبيد الحسين بن سلامة في القرن الرابع الهجري فالأمير سرور الفاتكي في منتصف القرن السادس الهجري على إثر غارات علي بن مهدي وحفرت الخنادق وفي سنة ٥٨٩هـ جدد عمارته الخليفة طغتكين بن أيوب وفي سنة ٧٩١هـ جدد عمارته (بناء السور) الملك الأشرف إسماعيل الرسولي وحفر الخنادق وفي سنة ١٢٢٢هـ جدد عمارته حمود بن محمد الخيراتي.

ولمدينة زبيد أربعة أبواب: الباب الشرقي ويسمى باب الشباريق نسبة إلى قيرة الشباريق الواقعة شرق المدينة، الباب الجنوبي ويسمى باب القرتب نسبة إلى قرية القرتب بوادي زبيد، الباب الغربي ويسمى باب النخل نسبة إلى حدائق النخيل وكان يسمى باب غليفقة، الباب الشمالي ويسمى باب سهام نسبة إلى وادي سهام.. وكان يخرج منه الملك نجاح إلى مدينة الكدراء التي تقع بوادي سهام الذي يبعد عن زبيد بثمانين كيلو متراً والذي يسقي كيلو ١٦ بالقرب من الحديدة.

(ج)الدار الناصري الكبير

– يعتبر هذا الدار من أهم المآثر في زبيد حيث كان بساحته قصور الزياديين والنجاحيين وقصر الأعز الصليحي وفي سنة ٨٢٢ هـ عمر الملك الناصر أحمد الرسولي الدار الكبير الذي عرف باسمه وهو ما يشمل باب النصر والسجن وثكناته العسكرية والباب وبداخله بستان القصر حيث امتدت إليه عين ماء جارية عمرت الأجور الجص فاهملت وتخربت العين عندما نضب الماء كما انه كان يوجد عدة بساتين مثل بستان الراحة وبستان برقوق وعدة قصور مثل قصر السلاح وقصر الملكة علم أم الملك المنصور النجاحي بقرية المزيفرية.

(د) قصر شحار

– يقول ابن المجاور (ص٧٨) في كتابة تاريخ المستفيد: بني شحار بن جعفر مولى محمد بن عبدالله بن زياد داراً في زبيد ذات طول وعرض بالآجر والجبس بناءً وثيقاً على مقاطع الطريق وكان من تولى زبيد سكنها وكان له باب عالي بالمرة ينظرون منه في الطريق على فرسخين وحفر حوله خندق عريض وبقي هذا الباب على حاله إلى أن هدمه المسعود بن يوسف بن أبي بكر الأيوبي سنة ٦١٨هـ ويقال إنما سعى في هدمه إلا الأمير أيبك الزيزي.. فلما هدمه أخذ آجره وبنى به داراً وكل ما بنى من آجره انقطع ذلك البناء من الأساس أي هدم وقد بقي إلى الآن آثار ذلك الباب والدرجة شبه الجبل العالي. ثم عرف هذا الدار نجاح وساحته الآن شمال أراضي العرق شرق مقبرة بني عقامة ويعتبر الفاصل بين حدود قبيلة السلامة وقبيلة القراشية وهناك عدة آثار منها مسجد الفازة.. على ساحل البحر ومسجد معاذ بن جبل برأس وادي زبيد ومسجد أويس القرني، أو عويس الهتاري بقرية الحمى وبجواره عدة مساجد وكان بجواره كنيسة قبل الإسلام هدمت في سنة ١٣٥٨هـ ، وعمر بأجوارها مدرسة الفوز الابتدائية بالمدينة ومن المآثر أبار الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل الرسولي قرب جبل الداشر وعدة قصور وجبل قونس به آثار من قبل الإسلام ويوجد آثار قصور للدولة الرسولية بنخل وادي زبيد تسمى بالعذيب وقصور شمال المدينة تسمى ساحتها إلى الآن بالقصر وآثار في قرية النويدرة وكل تحتاج إلى تنقيب ومحافظة.

المراجع:

– تهامة في التاريخ للمؤرخ الأستاذ عبدالرحمن عبدالله الحضرمي.

– عبده ثابت العبسي مدينة زبيد التاريخية بين الحفاظ والتنمية بحث مقدم إلى المؤتمرالأول العلمي زبيد وصلاتها بالعالم جامعة الحديدة عام ٢٠٠٢م.

– استحكامات مدينة زبيد الحربية عبدالله عبدالسلام حداد بحث مقدم إلى المؤتمرالأول العلمي زبيد وصلاتها بالعالم جامعة الحديدة عام ٢٠٠٢م.

– ابن المجاور كتاب صفة بلاد اليمن.

–المحدث عبدالرحمن الديبع الشيباني بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد.